مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2572-0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 05 العدد:02- جوان 2021 ص 307 - 321

مفهوم الأدب الشعبي واتجاهاته الفنية

The concept of popular literature and its artistic trends

د، بوزيد رحمون *

جامعة المسيلة (الجزائر)

rehmoun.bouzid@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال: 2021/05/06
تاريخ القبول: 2021/05/16

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الأدب الشعبي
- ✓ الخطاب الفني
- ✓ المحتوى
- ✓ التخصص والإنتاج

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى مقاربة الأدب الشعبي كفرع من التراث المرتبط بالخبرات والمعرفة والمشاعر الإنسانية والمتاح للإنسان في أشكاله الفنية وإنتاجاته الإبداعية التي لها دور أساسي في المجتمع.

يوفر استثمار الأدب الشعبي ضمن سياقاته التراثية إمكانية تحقيق التواصل الثقافي بين ماض يمثل الأصل والتاريخ ، وحاضر مرتبط من حيث أهميته في تفاعل الأبعاد الإنسانية والاجتماعية التي تسعى للتعبير عن مشاكل الفرد في داخل الواقع الاجتماعي الثقافي وفي ضوء المتغيرات الآنية والمستقبلية

Article info

Received

Abstract :

Abstract :*This study seeks to approach popular literature as a*

* المؤلف المرسل

branch of heritagerelated to human experiences, knowledge, feelings and itavailable to man in his artistic forms and creative productions, which have a fundamental role with in society.The investment of popularliteraturewithinitsheritagecontextsprovides the possibility of achieving cultural communication between a pastthatrepresents the origin and history, and a presentlinked in terms of itssignificance to interacting human and social dimensions thatseek to express the individual's problems within his socio-cultural reality and in light of the immediate and future variables.
Popular literature, artistic discourse, content, spécialisation, and production

06/05/2021
Accepted
16/05/2021

Keywords:
- *Popular literature,:*
- *artistic discourse,:*
- *content, spécialisation and production*

توطئة:

عندما يذكر الأدب الشعبي نستحضر معه في العادة مفاهيم لصيقة به، كونه فن قولي تلقائي ينتقل بشكل شفاهي من جيل إلى جيل، ولا ضرورة لمعرفة مؤلفة مادام نتاجا يعبر عن خبرات الإنسان وأحاسيسه ومشاعره بلغة عامية يفهمها المجتمع بكل أطيافه، ولعله من الواجب المنهجي الوقوف عند هذا المصطلح (الأدب الشعبي) من أجل إيجاد تعريف أو تعريفات تضبط حدوده.

الأدب الشعبي: مصطلح مركب من لفظين "أدب" و "شعبي" تخصص الثانية معنى الأولى التي تتسم بالعموم و الشمول، يقول محمد سعيدي حول تعريف الأدب: "ذلك الكلام الفني الجمالي رفيع المستوى من شعر أو نثر صادر عن أديب، كاتب أو شاعر وخاضع لمنطق لغوي فني معين[1] فالأدب الشعبي يستوي مع غيره من الأدب في هذه الصفات: من رفعة وجمالية وخضوع للمنطق الفني واللغوي.

أما لفظة "شعبي " فمنسوبة إلى الشعب الذي هو المجموعة البشرية المنتمية إلى بلد واحد وأصل واحد، أو أرض واحدة، ويحتكمون إلى قانون واحد، ويشتركون في تاريخ متناه في القدم، يقول مرسي الصباع : « نجد أن أول معاني الشعبية تكون في الانتشار، وبما أن الشعوب تمتد في تاريخها إلى جذور عميقة متناهية في القدم، لذا فإن المعنى الثاني للشعبية يكون في الخلود،

وعليه فإن كلمة الشعبية عندما نطلقها على أي شيء لا بد أن يتسم هذا الشيء بالانتشار والتوزع والتباعد المكاني والزماني، وبمصطلح أخر التداول والتراثية ».[2]

فشعبية الشيء لا تعني اتصافه بالابتذال والإسفاف والضعة، وإنما تعني الانتشار والذيوع والتداول بين كل أطياف الشعب، يقول محمد سعيدي: " إن الشعبي غير الشعبوي والشعوبي، فالشعبي ما اتصل اتصالا وثيقا بالشعب، إما في شكله، وإما في مضمونه، وأي ممارسة اتصفت بالشعبية تعني أنها من إنتاج الشعب أو أنها ملك له»[3]، فعادات كل شعب وتقاليده وطقوسه وكل نتاجاته القولية والمادية ملك له، لأنها نابعة من وجدانه قريبة من نفوس أفراده في حالي الإنتاج والتلقي، تقول نبيلة إبراهيم: "إن الأدب الشعبي ينبع من الوعي واللاشعور الجمعي".[4]

فالأدب الشعبي في الحقيقة هو من إنتاج فرد أو أفراد يشكلون شعبا أو أمة، لأنه من غير الممكن أن تجتمع الأمة كلها كي تؤلف حكاية، أو تصوغ مثلا، إنما الإنتاج الفردي هو الأصل ثم يلقى قبولا بين أفراد الشعب مما يسهل انتشاره وتداوله. وفي كتاب (شظايا النقد والأدب) ورد تعريف للأدب الشعبي بأنه "ذاكرة الشعوب، ووعيها الشفوي المحكي، والمرآة التي تعكس بصدق الماضي بكل ما ينطوي عليه من تقاليد وعادات اجتماعية، وطقوس دينية، ومشاعر فردية أو جماعية".[5]

فككل مصطلح حاول الدارسون تقديم تعريف جامع يحدد ماهية الأدب الشعبي إلا أن ذلك لم يتم، وهو أمر طبيعي في مسألة توحيد المصطلحات نظرا لأسباب عديدة، منها ما يعود إلى رؤية كل باحث ممن اهتموا بالأدب الشعبي، ومنها ما يعود إلى مادة الأدب الشعبي نفسها وما تتميز به من غنى وتشعب وشمولية لكل المجالات، وكذلك كونها ذات حركية واسعة، وانتشار هائل ما يجعلها تحمل كثيرا من الدلالات والأوجه، ما جعل الدارسين ينقسمون حيالها إلى اتجاهات وآراء عدة لعل أبرزها اتجاهات ثلاثة يمكن حصرها فيما يأتي:

الاتجاه الأول:

أصحاب هذا الرأي اهتموا بمحتوى الأدب الشعبي "ذلك الأدب المعبر عن ذاتية الشعب، المستهدف تقدمه الحضاري الراسم لمصالحه، يستوي فيه أدب الفصحى، وأدب العامية، وأدب الرواية الشفاهية، وأدب المطبعة، والأثر المجهول المؤلف، والأثر المعلوم

المؤلف"[6] وذهب الباحث عز الدين جلاوجي المذهب نفسه حين نظر إلى هذا الأدب الشعبي بوصفه المعبر عن مشاعر الشعب في لغة عامية أو فصحى[7]

فأصحاب هذا الاتجاه يرون أن الأدب الشعبي هو كل ما عبر أحاسيس الشعب وعاداته ومعتقداته، وتاريخه دون النظر إلى لغة الإبداع فيه، وهي الرؤية نفسها التي يذهب إليها الدارس سعيدي محمد حين عدّ "الأدب الشعبي رباط وثيق بكل أمة يولد معها ويترعرع بجوارها، ويتربى في تربتها، ويرضع من ثديها، ويجتر كل الحياة حلوها ومرها بلا تباطؤ[8] .

فهو بهذا لم يقيد هذا الأدب بلغة إنما صب تركيزه على موضوع ومحتوى المادة الشعبية وما تمثله من قيمة أدبية وحضارية تحافظ على موروث الأمة ومقدراتها الثقافية المشتركة التي تعد صمام أمان يحفظ للشعب هويته وانتماءه.

كما أضاف لخضر حليتيم أشكالا أخرى من الأدب الشعبي في العصر الراهن حيث قال: "عناصر مهمة في الوقت الحاضر منها: الأدب العامي المسجل، أو المذاع عبر وسائل الإعلام المختلفة: المطبعة، الإذاعة، التلفزة، المسرح، السينما، فهو أدب شعبي مسجل ومدون، ويتداوله الناس على الوسائل التكنولوجية المتطورة"[9]

فهو بهذا يشير إلى الدور الذي تؤديه الوسائط التكنولوجية الحديثة في المحافظة على الأدب الشعبي – على وجه الخصوص – وعلى مظاهر التراث الأخرى وكذا أشكال التعبير الشعبي المختلفة، كما أشار أيضا إلى الأدب الشعبي المعروف المؤلف، واستشهد برباعية من رباعيات الشيخ عبد الرحمان المجذوب، والتي يقول فيها:

اللي حب الطلبة نحبوه * ونعملوه فوق الراس عمامة

واللي كره الطلبة نكرهوه * حتى ليوم القيامـــة([10])

الاتجاه الثاني:

أما القائلون بهذا الرأي فقد اهتموا بعنصر اللغة على حساب العناصر الأخرى المكونة لتعريف الأدب الشعبي، وهم بذاك قد اهتموا بالشكل خلاف الذين اهتموا بالمضمون، فهم يرون أن "الأدب الشعبي لأي مجتمع من المجتمعات الإنسانية، هو أدب عاميتها التقليدي الشفاهي، مجهول المؤلف، المتوارث جيلا عن جيل" [11]

فهذا التعريف على الرغم من تركيزه على اللغة فإنه يلتقي مع تعريفات كثيرة من حيث كونه يتناقل مشافهة من جيل إلى جيل مع جهل مؤلفه في الأغلب الأعم، لسهولة انتشاره في الأوساط

الشعبية المختلفة ومن هذا ما ذهب إليه عبد الحميد بورايو عند حديثه عن الشعر الشعبي الذي يوسم عادة بالجمعية، يتناقل شفاها، يكون مجهول المؤلف، يرتبط إنشاده وارتجاله بالمناسبات الاحتفالية [12].

فهو إن لم يذكر لغة الشعر الشعبي إلا أنه يفهم ضمنا كونها عامية مناسبة لمظاهر الاحتفالية والارتجال، والانتقال السلس بين أفراد المجتمع دون أن يحتاج إلى الكتابة والتدوين.

الاتجاه الثالث:

يرى أصحاب هذا الرأي أن الأدب الشعبي يرتبط ارتباطا عضويا بقضايا الشعب، وينبع من داخله ليعبر عن أحاسيسه ومشاعره في كل جوانب حياته المضيئة والمظلمة بما تحمله من دلالات عميقة في حركات المجتمع وسكناته، وفي هذا المنحى أورد محمد سعيدي تعريفا لمحمد المرزوقي يقول فيه: "بالنسبة إلينا نحن العرب يتمثل الأدب الشعبي عندنا في هذه الأغاني التي تردد في المواسم والأفراح و الأتراح، وفي المثل السائر، وفي اللغز، وفي هذه النداءات المسجوعة والمنظومة على السلع وغيرها، وفي النكتة والنادرة، وفي الأساطير التي تقصها العجائز، والقصة الطويلة كألف ليلة وليلة، وفي السير كسيرة بني هلال، وفي التمثيليات التقليدية" [13].

ومن خلال ما تقدم فإن الأدب الشعبي هو مجمل الفنون القولية التلقائية، نقلت بلغة عامية من جيل إلى جيل، وبشكل شفاهي، وهي تعبير عن تفاعل الإنسان مع الطبيعة ومع الإنسان، فيكون الأدب الشعبي تتويجا لخبرات الإنسان، ومعارفه وأحاسيسه المختلفة، وبهذا لا يستطيع أحد أن يدعي إبداع أو تأليف أي موروث شعبي، رغم أن هذا لا يناقض القول إن مبدعا قد وضع حجر الأساس لقصة أو مثل في بيئة أو زمن ما، نتيجة تجربة شخصية ليصبح هذا الأساس كمركز الدائرة عند رمي حجر في بركة ماء، والدوائر المتلاحقة لهذا المركز تمثل مشاركات الجماهير الشعبية عبر بيئاتها المختلفة، وعصورها المتلاحقة، وعبر طبيعة تجاربها ونفسياتها المختلفة .

ومادام الحديث عن مفهوم الأدب الشعبي لا بد أن لا نغفل مصطلحا شاع لدى المهتمين بالتراث الشعبي عموما، وهو مصطلح فولكلور الذي بدأ استعماله في أوربا ومنها انتقل إلى العالم العربي، وهو مصطلح يتكون من شقين: FOLK وتعني: الناس أو الشعب و LORE وتعني: معارف أو حكمة ومن ثمة فهو: معارف الناس أو حكمة الشعب، وأول من ساق هذا المصطلح- باتفاق جميع المصادر-هو العالم الإنجليزي"ويليام جون تومز" خلال العام 1846 في

خطاب وجهه إلى مجلة " ذي إيثينيوم " الإنجليزية، وقد اختار هذا المصطلح ليدل على دراسة العادات المأثورة، والمعتقدات الشعبية، يقول التلي بن الشيخ: "وقد انتقلت تسمية الفولكلور إلى اللغة العربية ضمن التأثيرات الثقافية التي وفدت من الغرب، ولا يزال يستخدم من قبل عدد كبير من الكتاب العرب، ولاسيما في الصحافة، والإذاعة والمسرح، مما أدى إلى انتشار مصطلح فولكلور في الحياة اليومية من قبل العامة في الوطن العربي"[14]

والفولكلور يشمل الفنون القولية وغير القولية، من أساطير، ومعتقدات وعادات، وطقوس، يقول أحمد علي مرسي "إن الفولكلور هو الفنون والمعتقدات، وأنماط السلوك الجمعية التي يعبر بها الشعب عن نفسه سواء استخدمت الكلمة أو الحركة أو الإشارة أو الإيقاع أو الخط أو اللون، أو تشكيل المادة، أو آلة بسيطة"[15]

فمن خلال تعريف على مرسي فإن الفولكلور أعم من الأدب الشعبي لأنه يشمل الفنون القولية، من شعر ومثل، وحكمة، وأسطورة، وخرافة، وغيرها كما يشمل العادات والتقاليد، والطقوس والحركات، والرقص الشعبي، وغيرها. ومن مظاهر اهتمام الدارسين العرب بمصطلح الفولكلور أن ظهرت مصطلحات عدة تقابل هذا المصطلح مثل: الأدب الشعبي، التراث الشعبي، المأثورات الشعبية، ولعل الأخير هو الأقرب نظرا لعمومه، وشموليته.

أهمية الأدب الشعبي

يسود الاعتقاد بأن الأدب الشعبي أدب سطحي وساذج وعديم الجدوى، فهو أقل قيمة وأهمية من الأدب الرسمي، متجردا من أية صفة محترمة أو فنية، وهو بذاك سلعة تتداول بين العامة وبسطاء القوم ومحدودي الفهم، بل إن هناك من يراه عقبة في طريق استمرار الفكر وتطور البشرية.

وللنيل من هذا اللون الأدبي اختلق بعض الباحثين مجموعة من الاتهامات التي تخدم الوصف الذي نعتوه به، فمنهم من يرى أن الطبقة العليا من المجتمع لا علاقة لها بالتراث الشعبي لسيطرة الطابع الفردي عليها، ورقي ثقافتها، وقد كتب حسين مظلوم رياض ومصطفى محمد الصباحي في مقدمة كتابهما: "من المعقول الذي لا يختلف فيه اثنان أن أدب لغة من اللغات لا يمكن بحال من الأحوال أن يسد حاجة جميع الطبقات عاليها وسافلها وعالمها وجاهلها، ولذلك نشأت الآداب الشعبية لتكون في متناول فهم العامة، تسيغها إفهامهم، ولا تنبو عنها أذواقهم و عقولهم"[16]

ولعل الملاحظ لهذا الرأي يرى أنه يحمل مغالطتين، أولاهما فكرية، والأخرى تاريخية، فالأولى تتمثل في إلحاق الأدب الرسمي بالطبقة العليا، وبطريقه البواقي يكون الأدب الشعبي من نصيب الطبقة السفلى، والقسمة بهذا الشكل ضيزى لأن الطبقة العليا هي الأكثر غنى لا الأكثر ثقافة، و الطبقة السفلي هي الأكثر فقرا لا الأقل ثقافة. أما المغالطة الثانية فجاءت في قولهما: "لذلك نشأت الآداب الشعبية لتكون في متناول فهم العامة » فهي توحي بأن الآداب الشعبية جاءت متأخرة عن لأدب الرسمي في حين أن العكس هو الصحيح، لأن الأدب الشعبي قديم قدم الشعوب نفسها"[17].

ولعله من غير اللائق أن ننظر إلى الثقافة على أنها سلعة مادية توزع وتقسم بين الطبقات الاجتماعية، فالثقافة فكر، والفكر روح المجتمع و مادام التراث جزءا من الثقافة فلا ينبغي أن نلحق هذا التراث بأناس دون غيرهم، فالتراث الشعبي مجموعة معارف، والمعرفة تهم كل أبناء المجتمع دون تمييز، فالعلاقة بين الثقافتين (الرسمية و الشعبية) علاقة حميمة إذ لا يمكن الفصل بينهما فكل منهما تكمل الأخرى يقول ريتشارد قايس: "توجد الحياة الشعبية والثقافية الشعبية دائما حيث يخضع الإنسان - كحامل للثقافة- في تفكيره أو شعوره أو تصوراته لسلطة المجتمع و التراث. ففي داخل كل إنسان شد و جذب دائما بين السلوك الشعبي و السلوك غير الشعبي، ينتج عنهما موقفان متمايزان و لكنهما متكاملان أحدهما فردي و الأخر شعبي أو جماعي"[18] فمن ينتمي إلى طبقة الثقافة الرسمية مرتبط في الوقت ذاته ارتباطا ضروريا بالتراث الشعبي، وإن تفاوتت العلاقة بينه و بين عناصر هذا التراث، فهو ليس غريبا أو مقطوع صلة بالثقافة الشعبية. فالثقافة التي تسمى رسمية لا تختلف عن الشعبية إلا في أمور تخص الشكل، فالثقافتان متآزرتان في البناء الثقافي الكلي للمجتمع.

لقد سادت نظرة مفادها أن الأدب الشعبي مرتبط بمظاهر التخلف، وأن المنشغلين به أعداء للثقافة الرسمية و خطر عليها، وهكذا وضع هذا الفن في موضع الريبة حينا وفي موضع الاستهزاء حينا آخر، وأصبح كأنه يعني الهبوط، والانحدار، والجهل، والتخلف، فصار من اللازم أن تصحح هذه الفكرة التي مفادها أن الأدب الشعبي هو ذاك الذي يعالج موضوعات تتعلق بالطبقات الكادحة من الشعب وهي الشجاعة، والكرم، والطهر، والحب،والنبل وهي صفات لا تخص طبقة بعينها، بل تنطبق على الشعب بكل طبقاته، ومادام الأمر كذلك فالأدب الشعبي يقدم لتلك الطبقات جميعا، فليس فرضا على الفن حتى يصير شعبيا أن يبقى محصورا في

طبقة بعينها، وإنما من حق مبدعه أن يبني علاقات بطبقات أخرى يصل إليها بفنه ويؤثر فيها ويتأثر بها.

إن ما يميز الأدب الشعبي كمعرفة علمية أنه يخص جميع فئات الشعب، وليس حكرا على طبقة خاصة أو معرفة خاصة، والمطلوب من المهتمين بدراسة التراث الشعبي أن يعملوا جاهدين على جمع هذا التراث، وأن يطوروا أساليب دراسته لتكون في مستوى المناهج التي تحرص الأمم المتحضرة على تطبيقها لا أن يوجهوا له الاتهامات التي تبرر الهروب والتخلي عن رافد مهم ومحوري في نقل الثقافة الخاصة بالأمة.

وإذا كان بعض الدارسين قد اتهم الأدب الشعبي بأنه أدب الطبقة الدنيا –كما سبق- فإن هناك من يعرض عن دراسته، ولا يشجع على جمعه بحجة خشيتهم من مداهمة العامية للغة الفصحى، وتحل محلها، فتضيع بذلك اللغة الفصحى كما تضيع آدابها، فتفقد الأمة العربية أهم عنصر من مقوماتها، وهو عنصر اللغة [19].

والمتأمل في هذه النظرة بجد أنها سطحية، فلو كان الأمر كذلك لعمل هؤلاء على رسم خط للغة العامية وآخر للفصحى بحيث لا تلتقيان إلا لتصنعا معا تراثا حضاريا له قيمة عالية، كما أن العاميات ليست وليدة عصرنا، بل هي ضاربة في التاريخ، ولم نسمع يوما أنها زاحمت الفصحى أوحلت محلها، وهو ما يفند هذا الزعم.

وفي سياق الحديث عن العامية يمكن الإشارة إلى أن هناك من وقف موقفا معاكسا بمعنى أن العامية هي التي يجد فيها كل من أفراد الشعب ضالته فيندفع إليها متلقيا ومتذوقا، يقول ميخائيل نعيمة في هذا الشأن: "فمن الطبيعي أن يكون الشعر المنظوم بلغة المخاطبة أحب إلى قلبه (أي قلب الشعب) وأفعل في روحه من ذلك المنظوم بلغة سيبويه وطبقا لعروض الخليلية"[20]. فالناقد يظهر من خلال هذا النص أن العامية أقرب إلى الشعب من اللغة الفصحى، وفي هذا المعنى يقول حنا الفاخوري: "الشعر هو النغمة السحرية التي تتصاعد من القلوب والنفوس، وتعبر عنها الشفاه، وأحسن ما يكون التعبير الشعري بلغة الحياة التي هي مرآة صادقة للحياة في جميع دقائقها ومنعرجاتها، ولغة الحياة في البلاد العربية هي اللغة العامية"[21] فالناقدان على اتفاق بأن العامية هي الأقرب إلى النفوس لأنها لغة الحياة التي يجد فيها كل أفراد الشعب أنفسهم.

والأدب الشعبي ليس أدنى مرتبة من الناحية الفنية من غيره من ألوان الإبداع الإنساني، واللغة العامية التي تحمله قادرة على أن توصل معانية ومضامينه بسلاسة وعذوبة، وفي هذا يقول غنيمي هلال عن العامية: "لها قوة حيوية موضعية في التصوير قد تفوق فيها اللغة الأدبية ذات الطابع العام الفني العلمي ... اللغة العامية عندنا أميل للتصوير في عباراتها، وأبعد من التجريد، ولسنا بحاجة إلى إيراد أمثلة مما تزخر به لغتنا العامية من عبارات تصويرية لها مذاق خاص لطابعها الحيوي في الاستعمال، هذا إلى أن الاستعمال المحلي للغة الحياة اليومية يكسب الألفاظ دلالات موضعية محضة". [22]

فالعامية لغة تخاطب وتواصل وتفاهم داخل المجتمع، وهي وعاء لفكره، وعامية الأدب الشعبي لا تنقص من بلاغته شيئا، فالفصاحة في الألفاظ والبلاغة في المعاني، وهاتان القيمتان ليستا مقصورتين على اللغة الفصيحة المعربة، وإنما تشاركها في ذلك لغة الأدب الشعبي، وفي هذا المعنى يقول ابن خلدون: "وإلا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة، إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود سواء أكان الرفع دالا على الفاعل أو النصب دالا على المفعول أم العكس"[23]

وبالحديث عن الأدب الشعبي لا ينبغي أن نتصور أن المقصود هو تلك الكلمات العامية التي لا قيمة فنية فيها، بل المقصود تلك الكلمات والتعابير التي تكسوها روح الخلق والإبداع وتسرى فيها روح الإلهام، لأن صانع الأدب الشعبي فنان مبدع، وحتى ينتج الفنان نصا شعبيا كان أم رسميا لا بد أن يكون موهوبا ومزودا بقدرات فنية وملكات عقلية إضافة إلى المعارف المكتسبة لديه.

ولو أن أهل كل موروث شعبي نظروا إليه بعين الدارس المنهجي المدقق، وتخلوا عن النظرة الدونية إليه سواء في مقابل المورث الرسمي أم في مقابل النظرة الحداثية للأدب والفن لأنصفوا هذا الإرث الحضاري الشعبي ولازلت عقد التعالي لديهم تجاهه، وهذا ما ذهب إليه فاروق خو رشيد: "ولقد فعلت تيارات عديدة فعلها في موقف أصحابها من الحداثة ... منها أنهم كانوا يرون أوربا من منظور قاعة الدرس، ودنيا الجامعة، ومظان الفن، وهذه في حقيقتها تقدم خلاصة فكر الأمم ونهاية مطافها العلمي والفكري والفني على السواء، بينما واقع الحياة الممارسة على غير هذا الصعيد يحمل من مظاهر الصراع لخلق الحضارة وممارسة الحياة ما يساوي صراع بلادهم في درجاته، واختلاف مظاهره بين التخلف والتطور ما كان يمكن أن يزيل عقدة

التعالي التي مارسوها على موروث بلادهم، لو أنهم التفتوا إليه وصدقوا في معايشته... ومنها ما أرساه فلاسفة الحضارة عن غرض حينا، وعن تعال مرذول حينا، من اتهام للعقلية العربية بمحدودية الرؤية، ومحدودية الإبداع، مما أخذه مفكرونا من أصحاب الحداثة مأخذ الجد الخالص، فتسلحوا به، ومارسوا رؤيتهم للمورث العربي من منظوره، فأنكروا من هذا المورث كل ما يكذب هذه الاتهامات و يثبت فسادها"[24] فالمسألة –والحال هذه- ليست مسألة تراث بقدر ما هي مسألة حامل تراث، يخجل بتراثه مرة، ويتعالى عنه أخرى، والأحرى أن يكون خادما لتراثه معتزا به من إحساس بالمسؤولية اتجاهه.

ومن الدارسين من يلاحظ في موقفه تذبذبا وعدم استقرار فهذا، أحمد الشايب جمع بين مدح وذم للأدب الشعبي، ففي بداية كلامه نجده يحط من قيمة الأدب الشعبي، وفي نهاية القول يثني عليه، يقول: "ومع ذلك لا تعد العامية لغة رسمية، ولا يعد أدبها رسميا يدرس على أنه مقرر يجتذبه المتعلمون لسببين اثنين، أحدهما: شيوع الخطأ اللفظي والخروج على قوانين النحو والتصريف وعدم التحرج في قبول كل دخيل أو أعجمي من الألفاظ والتراكيب، حتى هجر فيها النحو العربي، وخضعت العبارات لصور أجنبية في تأليف الجمل وتكوين الأساليب. وثانيهما: ما غلب على معانيها من التفاهة ... فأغلبها أوامر ونواه وأخبار عادية تتصل بالحياة الجارية وتتكرر كل وقت وكل يوم مما لا يستحق درسا أو تقييدا، والأدب يجمع بين أمرين: صحة اللفظ وقيمة المعنى أو سموه، حتى يستحق أن يسمع أو يقرأ في كتاب"[(25)]

وبعد هذا مباشرة تتغير لهجته ويقول: "وليس معنى هذا خلو العامية من الألفاظ الصحيحة، أو المعاني القيمة، كلا، فاللغة العامية هي الفصحى طرأت عليها أخطاء، ودخلت عليها تراكيب لم تستطع أن تمحو صوابها كله، كذلك نجد فيها فنونا أدبية من النثر والنظم- كالحكم ولأمثال والأغاني والمواويل والأزجال- تجعلها معرضا للكثير من المعاني والموضوعات الأدبية القيمة، ولكنها من الأدب الشعبي على أي حال، ولسنا بذلك ننكر قيمة هذا الأدب في جماله وتصويره حياة الشعوب، لذلك قامت له دراسات خاصة تقابل دراسات الأدب الفصيح"[(26)]

فأحمد الشايب عندما تحدث عن المعاني والموضوعات القيمة في الأدب الشعبي فإنه لا يرحب بهذا الأدب وكأن شيئا ما في نفسه يحركه ويوجهه، ويبدو أن أحمد رشدي صالح قد وصل إلى هذه المسألة حيث يرى أن الخطأ الذي ارتكبه أحمد الشايب ومن سار في دربه أنهم اعتمدوا آراء النقاد المدرسية من أمثال "لاسالأبركومي " الذي أخذ عنه أحمد الشايب[27]. ونسوا أو تناسوا أن

العديد من الجامعات الأوربية تعترف بالمادة الشعبية وتدرجها ضمن البرامج التعليمية، أما أن الأدب الشعبي لا يستحق الدرس لشيوع الخطأ النحوي فيه فكيف سيكون شعبيا لأن طبيعته تفرض على لغته أن تكون كذلك.

ومن الشخصيات الفكرية العربية التي تركت بصماتها واضحة في التراث العربي يذكر طه حسين الذي وقف من الأدب الشعبي موقفا مشرفا، حيث يرى أن الأدب الشعبي فن قوي وممتاز له قيمته يقول: "لسوء الحظ لا يعنى العلماء في الشرق العربي بهذا الأدب الشعبي عناية ما، لأن لغته بعيدة عن القرآن، وأدباء المسلمين لم يستطيعوا –بعد-أن ينظروا إليه على أنه غاية تطلب لنفسها،وإنما الأدب عندهم وسيلة إلى الدين... وهذا الأدب الشعبي - وإن فسدت لغته– حي قوي له قيمته الممتازة من حيث إنه مرآه صافية لحياة منتجيه"[28]

وهذا الموقف يدعمه موقف لعباس محمود العقاد الذي يرى ألاّ خلاف على بقاء الأزجال المواويل والأغاني الشائعة، لأن أحدا من العقلاء لا يبلغ به الحمق أن يتصور أمة كانت أو تكون بغير لهجة عامية تعيش جنبا إلى جنب مع اللغة الفصحى، لأن تاريخ اللغات يدل على حقيقة لم تتغير قط في عهد من العهود، ولا في قوم من الأقوام، فليبق الأدب الشعبي للشعب كله وليتسع كما تتسع كل لغة لبلاغة الفصحى وطرائف اللهجات الدارجة.

إن موقفا كهذا لم يأت من فراغ، بل كان نتيجة حوار مع الذات لتبرز فكرة الحضارة، وهي فكرة يؤمن أصحابها بأن الفن الشعبي بعمومة جزء من الثقافة، فكلما اتسعت آفاق الفنان انفتحت أمامه أبواب متعددة من الرؤى الفنية لواقع الحياة، أي حياة الفنان نفسه كواقع ثقافي، وحياة مجتمعه كوحدة أكبر في بنية المجتمع الإنساني الكبير. لأن الإنسان هو محور الوجود و مركز الإبداع الإنساني.

أما توفيق الحكيم فيشير إلى علاقته بحكايات "ألف ليلة و ليلة " التي تأثر بها وهو طفل صغير وكذا بالسير الشعبية حين يقول: "كان هذا الخادم الذي أبارزه بيد المكنسة يذهب في الليل إلى مقهى بلدي، به شاعر بربابة يروي عليها قصة أبي زيد الهلالي، ودياب بن غانم، والسفيرة عزيزة... فكان يحلو له أيضا أن يمسك بقطعة طويلة من الخشب ويصيح بي قائلا: أنا أبو زيد الهلالي، وأنت الزناتي خليفة، ثم يسرد علي ما سمعه من الشاعر ليلا، فكانت تقع هذه القصص موقعا حسنا"[29] فتلك القصص الشعبية كانت تترك في نفس توفيق الحكيم أثرا عميقا، فكانت مصدرا من مصادر تكوينه الفكري.

وليست هاته الآراء بدعة ننفرد بها نحن العرب في هذا المجال، فهناك أمم أخرى سبقتنا إلى مضمار الدراسات الفولكلورية، بل إن تلك الأمم سعت جاهدة إلى تأصيل العلم الذي يدرس المادة الشعبية مثلما أصلت مناهج ذلك العلم، ومن الكتاب الغربيين نذكر "مكسيم غوركي" الذي يرى بأن "بداية فن الكلمة هي الفولكلور: اجمعوه وادرسوه ثم صوغوه، وسينتج عنه قدر كبير من المادة، نحن شعراء، وكتاب الاتحاد السوفياتي، وبقدر ما نعرف الماضي جيدا بقدر ما سنفهم الحاضر الذي نخلقه فهما ميسرا عميقا مبهجا"[30]

وينم هذا الموقف عن وعى ودراية بقيمة الفن الشعبي، فنظرته لم تتوقف على مستوى الإعجاب، بل تعدته إلى حد التذوق، فلقد كان يتذوق الأدب الشعبي كما كان يتناوله في كتاباته الإبداعية، فإنه كثيرا ما كان يتعرض له في مناقشاته النظرية والنقدية، وكم من مرة نصح فيها الكتاب أن يطيلوا النظر إلى نتاج الشعر الشفوي، وأن يتعمقوا فيه، وبذلك يجددون لغتهم الأدبية ويثرون قواهم الإبداعية [31]

أما"لافارج " فيري أن الأدب الشعبي قيمة تاريخية كبيرة تفوق قيمة أي نتاج فردي منعزل، وذلك لدقته وصدقه، ولذلك يمكن لأي فرد أن يفيد منه عن ثقة ودقة، ودون أن يخشى تضليلا"[32]

كما أن أهمية التراث الشعبي لم تكن حكراعلى الدراسات الأدبية فحسب،بل طالت علوما أخرى، وهذا ما يشير إليه **"سوكوف"** حين يقول: :التاريخ القديم لكثير من الشعوب يمكن معرفته في الغالب عن طريق المواد الفولكلورية، ومن هنا تعود أهمية جمع التراث الشعبي ودراسته لا بالنسبة للدراسات الأدبية فحسب، بل للعلوم التاريخية أيضا"[33]

وكلما أطلعنا على أعمال المتقدمين وجدنا أن اهتمامنا بتراثنا مازال قاصرا، وأن التراث الشعبي الذي اهتم به الجاحظ والمسعودي، وابن الفوطى وغيرهم يتميز بالعمق التاريخي إزاء كل المتغيرات التي واجهت الإنسان العربي على مر العصور.

وقد ذكر ابن خلدون أن المنشغلين بالأدب على أيامه أخذوا موقفا من العاميات وأنكروها كما أنكروا آدابها، و ذلك أن معانيها – حسبهم - عادية لا ابتداع فيها فقال: "والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العصر، و خصوصا علم اللسان يستنكر هذه الفنون...ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها"[34]

إن هذا النص على صغر حجمه إلا أنه يحمل معنى كبيرا، وفكرة عميقة، تتلخص في كون ابن خلدون لم يقف من الأدب الشعبي موقف المعترف به فحسب، بل تجاوز ذلك إلى نقد علماء اللسان لأنهم وقفوا عند مظاهر الإعراب، ولم يفرقوا بين القيمة الفنية للقول المعرب و القول غير المعرب، وأن عدم تذوقهم للأدب الشعبي ناتج عن فقدان ملكة الذوق وعدم اطلاعهم على أساليب العامة.

ومن الآثار الدالة على موقف القدامى من الأدب الشعبي تلك المؤلفات التي ألفوها، من أمثال صفي الدين الحلي صاحب كتاب "العاطل الحي" الذي خصصه للحديث عن الزجل وأنواعه، وكذلك ابن حجة الحموي الذي ألف كتابا بعنوان "بلوغ الأمل في فن الزجل". وكذلك ما خلفه ابن قتيبة من مؤلفات، فإلى جانب"أدب الكاتب، وغريب القرآن" ترك لنا كتبا تتناول الأدب الشعبي من مثل" حكم الأمثال "و" الحكاية و الحكي" وكذا كتاب "تعبير الرؤيا"، كما ضمن النويري كتابه " نهاية الأدب" كل ما وصل إلى علمه من تراث جاهلي وإسلامي، من معتقدات وعادات وعلم شعبي وأمثال وحكايات وألغاز.

وبما أن الالتصاق بالتراث ليس بدعة عربية فإن الغربيين قد اهتموا بالتراث الشعبي وأفادوا أيما إفادة، وقد كتب الدكتور محمد الجوهري عن الفولكلور الألماني مبينا فضل الأخوين "جريم" والمتمثل في "حكايات الأطفال والبيت" التي ظلت لأجيال عديدة مصدرا لإمتاع الأطفال متعة حقيقية، وكذا الكشف عن ذخائر الشعب الألماني في التاريخ والأدب، كما حاولا الكشف عن القوانين الداخلية للغة الألمانية، كما قدم الأخوان "جريم" إسهامات خالدة في تشكيل الحياة الثقافية للقرن التاسع عشر الغني بالتيارات المتلاطمة[35]. فالأخوان "جريم" قاما بإعادة اكتشاف الماضي الألماني في مجالات التاريخ، واللغة، والأدب.

إن مشكلة التراث ليست عربية، أو قاصرة على العالم العربي، بل هي غربية أيضا لكن مع اختلاف في النوعية، فإذا كان المفكرون العرب قد أهملوا التراث بسبب نقص الوعي الحقيقي الذي يكشف أبعاده و فوائده التي تعود على الأمة، فإن الغربيين ابتعدوا عنه بسبب التطور العلمي والحضارة المادية الفاحشة التي كادت أن تسلب من الشعوب المتحضرة ثقافتها وموروثاتها الشعبية.

فمنذ أن أحست الشعوب بهذا الخطر الداهم راحت تحاول إعادة بناء الجسر المفقود الذي يربط بين حاضرها المتمدن وموروثاتها الثقافية الشعبية، وقد طرح المفكر الفرنسي "بول

ريكير" عدة أسئلة في هذا الشأن : ألم تبعدنا عصريتنا عن جذورنا ما كان منها بعيدا وما كان قريبا؟ ألا نستطيع أن نجد السبيل للعودة إلى جذورنا القريبة والبعيدة مادمنا نقف في وسط المسافة بين قريب جذورنا وبعيدها؟ بالاعتماد على حقيقة أن الثورة العلمية قد خلقت هذه المسافة بيننا وبين كل الثقافات التقليدية.[36]

فالشعب الفنلندي –مثلا-ينظر إلى الفولكلور على انه جوهر الأدب الفنلندي والثقافة الفنلندية الوطنية، فدراسة الفولكلور في هذا الشعب لعبت دورا كبيرا وعظيم الأهمية في بناء وتطور الدولة.[37]

لقد كان اهتمام تلك الشعوب بالتراث وإيمانها به ودرستها إياه دليلا على إدراكها لقيمة ما يحمله من جذور الإنسان منذ اللحظة الأولى التي حاول فيها التعبير عن نفسه وسعى إلى تفسير ظواهر الكون، وكذا حين حاول استرضاء القوى المجهولة التي تؤثر في حياته ووجوده، كما تؤثر في وجود المظاهر الكونية والحياتية التي يعيش فيها هذا الكائن البشري.

هوامش الدراسة:

[1]- سعيدي محمد، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1998، ص9.

[2]- مرسي الصباغ، دراسات في الثقافة الشعبية، ط1، دار الوفاء للطباعة والنشر،الإسكندرية، 2001، ص24.

[3]- سعيدي محمد، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، ص 09.

[4]- نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة،دت، ص3.

[5]- دغان أم سهام، شظايا النقد والأدب، دراسات أدبية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 41.

[6]- ينظر: أحمد رشدي صالح، الأدب الشعبي، ط،3 مكتبة النهضة المصرية، 1971، ص 14 -15.

[7]- ينظر: عز الدين جلاوجي، الأمثال الشعبية الجزائرية بسطيف، مديرية الثقافة سطيف، الجزائر، ص8.

[8]- ينظر: سعيدي محمد، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، ص 12.

[9]- لخضر حليتييم، صور المرأة في الأمثال الشعبية الجزائرية، ط1، المؤسسة الصحفية بالمسيلة للنشر، الجزائر، 2010، ص34.

[10]- نور الدين عبدالقادر، القول المأثور من كلام الشيخ عبد الرحمن المجذوب، المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية لصاحبها ردوسي قدور،دت، ص60.

[11]- سعيدي محمد، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، ص9.

[12]- ينظر: عبد الحميد يواريو، في الثقافة الشعبية الجزائرية، التاريخ والقضايا والتحليلات، دار أسامة للطباعة والنشر والتوزيع، ص 15.

[13]- سعيدي محمد، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، ص13.

[14]- التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص71.

[15]- أحمد على مرسي، مقدمة الفولكلور، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2001، ص12

[16]- حسين مظلوم رياض ومصطفى محمد الصباحي، تاريخ أدب الشعب،مطبعة السعادة، القاهرة 1936 من المقدمة

[17]- محمد غنيمي هلال،قضايا معاصرة في الأدبوالنقد، دار نهضة مصر للطباعة و النشر الفجالة،د ت، ص108

[18]- محمد حافظ دياب، بين الفولكلور و الطبقات محملة الثقافة ص 86.

[19]- ينظر: عبد اللطيف البرغوثي، الفولكلور والتراث، مجلة عالم، الفكر المجلد السابع عشر، العدد الأول، 1986،ص 101

[20]- منير إلياس وهيبة، الزجل وتاريخه، أدبه أعلامه قديما وحديثا، ص 88.

[21]- منير إلياس وهيبة، الزجل وتاريخه، أدبه أعلامه قديما وحديثا، ص 91

[22]- غنيمي هلال، قضايا معاصرة في الأدب والنقد، ص 109

[23]- ابن خلدون،المقدمة، المطبعة الأدبية بيروت، ط 2، ص 532

[24]- أحمد الشايب،الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية،ط11، ص11

[25]- فاروق خو رشيد، الجذور الشعبية للمسرح العربي، ص 10-11.

[26]- أحمد الشايب، الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، ط11، ص11.

[27]- ينظر: أحمد رشدي صالح، الأدب الشعبي، ص 32.

[28]- عبد اللطيف البرغوثي، الفولكلور والتراث، مجلة عالم الفكر، مج 17، ع1، 1986، ص101.

[29]- فائق مصطفى أحمد، أثر التراث الشعبي في الأدب المسرحي النثري في مصر، دار الرشيد للنشر 1980-ص11

[30]- يوري سوكولوف، الفولكلور، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971،ص 34.

[31]- ينظر: المرجع نفسه، ص 34.

[32]- المرجع نفسه، ص 44.

[33]- يوري سوكولوف، الفولكلور، ص 44.

[34]- ابن خلدون، كتاب العبر، ج 1، القاهرة 1329 هـ، ص 665.

[35]- طلال سالم نايل، مجلة التراث الشعبي، مجلة شهرية تصدرها وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية العدد05، السنة التاسعة 1978، ص 168.

[36]- ينظر: عبد اللطيف البرغوثي،الفلوكلوروالتراث، مجلة عالم الفكر، مج17،ع1، ص177.

[37]- أحمد مرسي، مقدمة الفولكلور، ص 32.